لم يمضِ الكثير على منتصف الظهيرة، حين بدأ طلاب المدارس الابتدائية والإعدادية يتقاطرون نحو منازلهم بعد يومٍ دراسيّ طويل، يتقدّمهم خمسة صبيةٍ سلكوا طريقًا ترابيًا متفرّعًا من الشارع الرئيسي شرق المخيم.

كانوا يسيرون بخفةٍ ولهوٍ، يتبادلون الضحكات، ويروون لبعضهم قصص المدرسة :تصرّفات زملائهم، وتعليقات المدرّسين، وحكايات اليوم الذي لم يخلُ من الطيش أو المتعة .كان الطريق الطويل الممتدّ أمامهم أشبه بجسرٍ من الحكايات الصغيرة، يقضون عليه ما تبقّى من طاقة الطفولة قبل الوصول إلى بيوتهم.

عن يمينهم ويسارهم انتصبت بيوت المخيم القديمة، جدرانٌ متشقّقة، وأسقفٌ واهنة، وشبابيك تئنّ تحت غبار السنين .كلّ شيء فيها يحكي عن الفقر والبؤس، عن أناسٍ يتشبّثون بالحياة رغم ضيقها، وكأنهم يخوضون معركةً ضدّ الاندثار.

ـــــالبيوت كلها بدت متشابهة، باستثناء منزلٍ واحدٍ على الجانب الأيسر من الطريق. كان مختلفًا بطريقةٍ لافتة :حديث البناء، من طابقين، نوافذه الزجاجية مؤطّرة بالألومنيوم على خلاف سائر بيوت الحيّ التي تعتمد الخشب، وبابه المعدنيّ الصغير إلى جانبه بابٌ أكبر أشبه ببوابةٍ لمحلّ تجاريّ أو مخزنٍ صغير، تحفّ به عتبةٌ حجرية مصقولة بعناية. ولم يكد الأطفال يصلون إليه حتى دوّى من داخله صراخٌ حادّ اخترق السكون، تبعه صوتُ بابٍ يُصفق بعنفٍ فاهتزّ له الشارع كله.

خرج شابٌّ يافعٌ من البوابة الصغيرة، ملامحه محتقنة، ودموعه تلمع في عينيه .تمتم بكلماتٍ غاضبةٍ غير مفهومة، وشقّ صفَّ الصبية مهرولًا نحو نهاية الشارع.

وقبل أن يختفي، انفتح الباب مجددًا، وخرج منه رجلٌ أربعينيٌّ غاضب، صرخ بأعلى صوته:

ـــــمنار !أنت !هيه ...عد إلى هنا!

كانت كلماته تخرج متقطعةً، تحمل من الغيظ ما يجعلها أقرب إلى حممٍ لفظيةٍ من فمه .لكن منار لم يلتفت، وواصل الجري حتى ابتلعته زاوية الشارع.

ولم يخطر بباله آنذاك أنّ أوّل مَن سيلحق بخطاه خارج هذا البيت سيكون خميس—الصديق الذي سيذكّره دومًا بأن الغضب لا يهدأ وحده.

تقدّم الرجل خطوةً أخرى ولوّح بذراعه مهدّدًا:

ـــاذهب حيث شئت أيها الولد العاق، لكن تذكّر، ستعود ...وحينها سأريك ما أصنع بك!
ظلت قبضته مرفوعةً في الهواء وهو يتوعّده، قبل أن يلتفت نحو الصبية الذين تجمّدوا في أماكنهم، وجوههم شاحبةٌ وعيونهم متسعة.
حدّق فيهم لحظةً بنظرةٍ قاسيةٍ، فابتلعوا ريقهم في صمت، ثم استدار عائدًا إلى الداخل بخطواتٍ متوترةٍ ثقيلة.

***

كان الرجل في أواسط الأربعينيات، ذو عيونٍ غاضبةٍ وأنفٍ دقيقٍ يعلوه شاربٌ كثٌّ، وتحت ذقنه لحيةٌ خفيفةٌ مشذّبةٌ بعنايةٍ تمنحه مظهرًا حادًّا متجهّمًا.
ارتدى جلبابًا رماديًا فضفاضًا، ومسح شعره القصير بإحدى كفيه قبل أن يدخل إلى البيت .
وحين عبر العتبة، انحنى قليلًا وبصق إلى جانبه في حركةٍ متأصّلةٍ من العادة، ثم مضى إلى الداخل.
كانت الردهة فسيحةً ومزوّقةً بعنايةٍ تدلّ على ذوقٍ عالٍ وقدرةٍ ماليةٍ لا بأس بها.
قطع أثاثٍ مخمليةٌ بلونٍ بنيٍّ وذهبي، ستائرُ سميكة، منضدةٌ زجاجيةٌ تتوسّط المكان تعلوها سلةُ قشٍّ صغيرة تحوي زهورًا اصطناعية، وخزانةٌ خشبيةٌ داكنة اللون يعلوها تلفازٌ كبيرٌ أشبه بجدارٍ رابعٍ في الغرفة.
كلّ شيءٍ كان يوحي بالترتيب والدقّة، بلمسةٍ من الفخامة المبالغ فيها.
جلس الرجل—وهو نضال البيروني، المعروف بين الناس بـأبو منار—على أقرب أريكةٍ إليه، أطلق زفرةً قويةً، ثم صرخ من فوره:
ـــلقد أخبرتك أن تُغلقي فمك، أليس هذا صحيحًا؟!

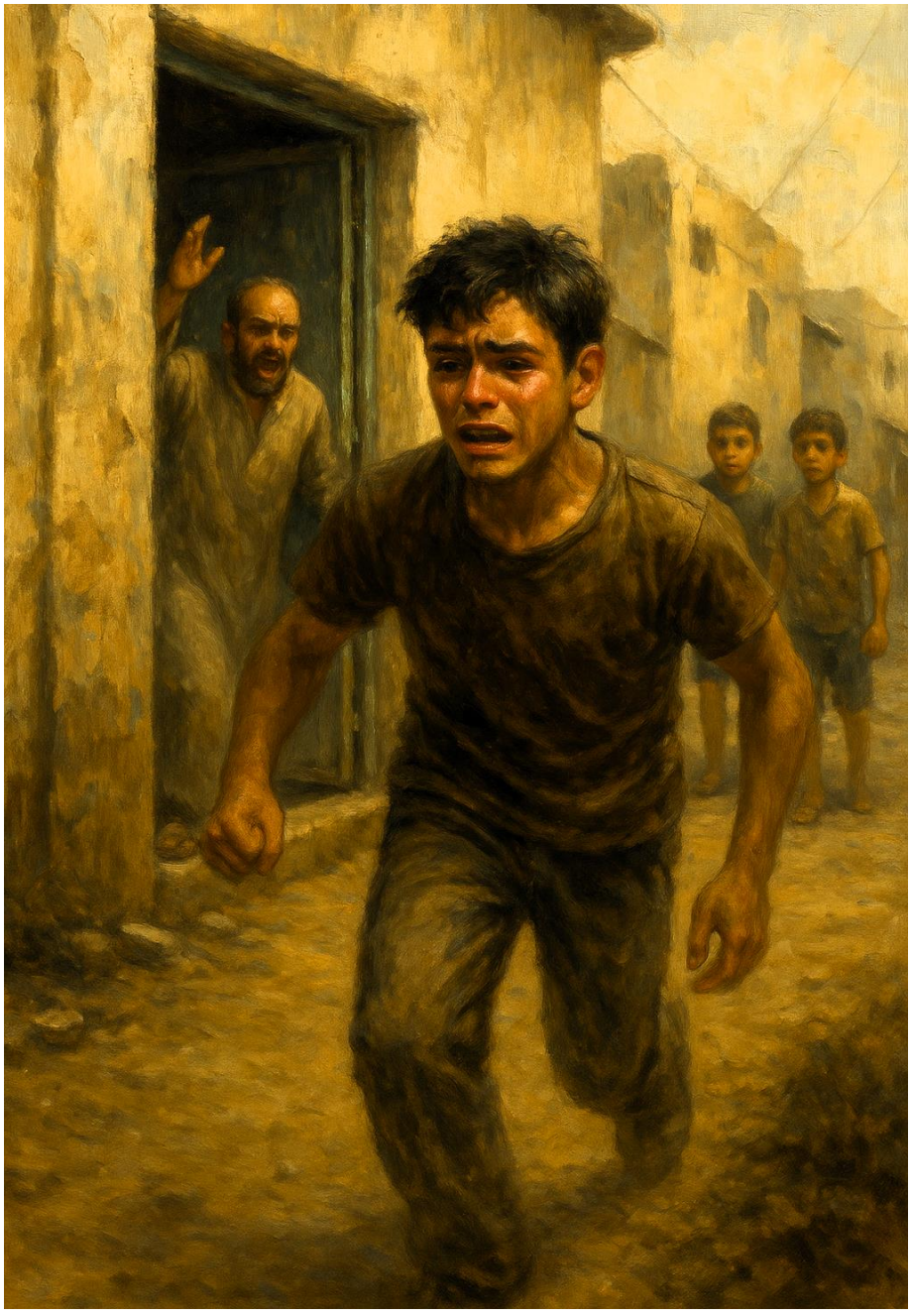

"خرج منار من البيت والنداء يلاحقه، لم يلتفت... كأنّ الصرخة كانت أولَ جدارٍ يكسره."

بدت عبارته موجهةً إلى نفسه أولًا، قبل أن يُسمع من المطبخ صوتُ بكاءٍ مكتومٍ متقطّع.
بعد لحظات، ظهرت سيدةٌ في أوائل الأربعينيات، نحيلةُ القوام، متوسطةُ الطول، ترتدي فستانًا أزرق طويلًا يغطي ذراعيها وقدميها، وشعرها الأسود الكثيف مرفوعٌ للخلف.
كانت تمسح دموعها وهي تتقدّم ببطءٍ مترنّحٍ حتى وصلت إلى مدخل الردهة، وضمت كفيها إلى صدرها في رجاءٍ مرتجف:

ـــأرجوك ...لا تغضب من منار ...أرجوك سامحه هذه المرة.

ما كادت تنهي جملتها حتى قاطعها نضال بصوتٍ هادرٍ ساخر:

ـــأها ...هذا ما تقولينه دائمًا !اصفح عن منار، أرجوك يا أبا حمزة، اصفح عن منار!

قلّد نبرة صوتها في سخريةٍ لاذعةٍ وهو يشير إليها بإصبعه:

ـــهذه نتيجةُ دلالك الفارغ !أنتِ من جعلته بهذا الشكل .لو تركتِني أؤدّبه منذ البداية لكان اليوم رجلًا يُعوّل عليه!

أنهى عبارته وهو يشيح بوجهه عنها، باحثًا بعينيه عن شيءٍ التقطه سريعًا :جهاز التحكم بالتلفاز.

أمسكه وأشعل الجهاز بلا اكتراث، متجاهلًا دموعها التي كانت تتجلّد بصعوبة.

اقتربت منه وجلست إلى جواره، على بُعد سنتيمتراتٍ قليلة، ومسحت آخر دمعةٍ عن خدّها قبل أن تغيّر ملامحها في لحظةٍ واحدة:

اختفى وجهها الباكي ليحلّ محله وجهٌ ودودٌ حنون، تحدثت بنبرةٍ هامسةٍ لينةٍ:

ـــيا زوجي العزيز، أنت تعلم أن منار كبر، وصار يريد أن يعتمد على نفسه، أن يستقلّ...

لم تُكمل جملتها؛ فاجأها صراخه الهائج:

ـــالاستقلال؟ !هذه الكلمة التي خنقتني !هذا ما كنت أخشاه .لقد أفسدْتِه أنتِ بتدليلك الزائد، حتى صار متمرّدًا لا يسمع لأحد!

رفع ذراعه مهدّدًا، فارتجفت المرأة وغطّت وجهها بيديها، لكنها ما لبثت أن سمعته يزفر ويهدأ قليلًا، ثم يتنفس ببطءٍ قائلاً بنبرةٍ أكثر خفوتًا:

ـــاسمعيني جيدًا يا آلاء ...منار ما زال طفلًا .يحتاج إلى تربيةٍ وتوجيهٍ، وأنا إن لم أعلّمه الطريق الصحيح فسيضيع، وستخسرينه أنتِ قبلي.

أشار إلى صدره مؤكدًا كلماته، ثم أدار رأسه نحوها وهو يتابع:

ـــهل نسيْتِ كيف كان متفوقًا العام الماضي؟ لقد تراجع مستواه فجأة .هذا ليس صدفة .عدم الانضباط هو السبب.

صمت لحظةً، ثم أضاف بنبرةٍ أكثر مرارةً:

ـــصار يقضي أغلب وقته في الخارج .لا أدري مع من يتحدث، ولا أين يذهب .والأسوأ...

توقّف، أغمض عينيه لحظةً، ثم قالها وكأنها صفعة:

ـــأصبح مدخنًا يا آلاء !منار، طفلنا الصغير، يدخّن!

شهقت الأم وبكت بصوتٍ عالٍ، فتابع نضال وهو يشيح بوجهه:

ـــإن تعلّم التدخين اليوم، فماذا سيتعلّم غدًا؟!

وقف فجأةً متجهًا نحو خزانة التلفاز، فهرعت إليه تمسك بيده متوسّلة:

ـــأرجوك يا نضال، تحدّث إليه برفق .هو ولد طيّب، فقط خذه إليك بحنان .لا تغضب منه.

دفع يدها برفقٍ متوتّر، وقال بصرامة:

ـــكفى !سئمتُ التهذيب بالكلام .لا جدوى مع منار إلا بالشدة .وسيرى منّي ما يُعيد إليه صوابه.

انحنى يفتّش في الخزانة، فسمع صوتها الباكي يتوسّل من جديد:

ـــأعطه فرصة أخرى!

لم يُعرها اهتمامًا، وأخرج قارورةً زجاجيةً زرقاء وخرطومًا معدنيًا وأنبوبًا صغيرًا، وضعها على المنضدة أمامه وهو يقول بنبرةٍ حاسمةٍ متعبة:

ـــكفى نواحًا .أحضري الفحم .أريد أن أدخّن النارجيلة .ولا تنسي الشاي.

قالها وهو يركّب أجزاء النارجيلة بمهارةٍ رتيبةٍ، بينما آلاء تنسحب نحو المطبخ في صمتٍ ثقيل، تضمّ كفيها إلى بطنها وتكتم دموعها.

لقد عاشت معه بما يكفي لتعرف أن الجدال في هذه اللحظة عبث.

هذه ليست المرة الأولى التي يتصرّف فيها بهذا الغضب، وهي تعرف تمامًا متى يكون الحديث معه غير مجدٍ ...ومتى عليها أن تصمت.

***